من الأكيد أنّنا لا نعني نور الشمس. فالشمس كانت قبل أن نكون. وما من جيل مضى أو عصرٍ انقضى إلّا رافق الشمس ورافقته الشمس. فما نجا جيل ولا انعتق عصر من العثرات والنكبات والويلات والأوجاع والظلمات التي ما برحت تكتنف الحياة والموت. ألعلّ القائلين بأن عصرنا عصر النور يعتقدون، ويريدوننا أن نعتقد، أنّه أصبح في مستطاعنا اليوم، بفضل ما نحن فيه من نور، أن نأمن العثار، ونتحاشى الويلات والنكبات، ونتغلّب على الأوجاع والظلمات؟ إنّهم لقومٌ سذّجٌ وإنّهم لواهمون.

إذن أيّ نور هو الذي يمتاز به عصرنا عن سالف العصور؟ وهل هو نور أصيل أم مزيف؟

إنّ ما يعنيه أولئك السذّج بالنور ليس أكثر من بصيص الحباحب في الديجور. فقد طاب لهم أن يقسّموا تاريخ البشريّة إلى أدوار أو عصور، وأن يُلصقوا بكلّ عصر رقعة ويخطّوا على كلّ رقعة كلمة تكون بمثابة صفة لذلك العصر تميّزه عن غيره من العصور. وقد رأوا أن العصر السابق لعصرنا ـ وهو الأجيال الوسطى ـ كان عصراً صَرَف جلّ همّه إلى الشعوذات العلميّة والمماحكات الدينيّة. فنكّل أفظع التنكيل بمن سوّلت له نفسه الخروج على قشور العلم المألوف